



التضامن الأهلي الجزائري مع الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى

Algerian Indigenous Solidarity With The Ottoman State During The First World War

عبد القادر قوبيع

جامعة الجلفة

goubaaa61@gmail.com

تاريخ القبول: 2019-12-14

تاريخ الاستلام: 2019-08-18

ملخص -

تتناول هذه الدراسة أهم مظاهر التضامن الأهلي الجزائري مع الدولة العثمانية باعتبارها عاصمة الخلافة الإسلامية وحليفها ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى. حيث تنوعت مظاهر هذا التضامن وأشكاله من تعاطف شعبي عكسته القصائد والأغاني واقتناء صور الزعماء ورموزهم (شعاراتهم) إلى تشكيل خلايا سرية لإثارة التمردات وإزعاج النفوذ الفرنسي وتحرير الجنود الجزائريين على الفرار من المعسكرات الفرنسية والالتحاق بالمعسكرات الألمانية. كما حاولت الدراسة إبراز مدى أهمية وخطر هذا التضامن على المصالح الفرنسية وموقف السلطات الفرنسية من ذلك.

الكلمات الدالة -

التضامن الأهلي الجزائري. الجزائر. الحرب العالمية الأولى. الدولة العثمانية. ألمانيا.

Abstract -

This study deals with the most important aspects of Algerian popular solidarity with the Othoman state as the capital of islamique gouvernance and its ally Germany during the First World War, the aspects and forms of this solidarity have been diverse, starting from the sympathy popular consisting of poems and the leaders and their slogans, until the composition of secret seals to evoke the revolts and dislocate the French influence and push the Algerian soldiers to the escape of French camps in ordre to join the camps of Germany.

This study has also tried to show the importance and the danger of this solidarity on the French interests and the position of the French authorities against it.

Key words –

Algerian popular solidarity .Algeria. First World War. Othoman state. Germany.

1. - مقدمة

يمثل موضوع التضامن في عالم العلاقات الدولية موضوعا حيويا لما يحويه من عناصر ومواقف بعيدة الجذور وغريبة التفسير ومستعصية عن القياسات والحسابات السياسية، رغم أن آثار هذا التضامن قد تمتد إلى تحريك كثير من الأحداث المختلفة.

وسنحاول في هذه الورقة البحثية أن نكشف عن مظاهر التضامن الأهلي الجزائري مع الدولة العثمانية وحليفها ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى، باعتبار أن قضية الولاء للدولة العثمانية قبل هذه الفترة هو أمر يكاد يكون معروفا ومكتمل الأركان، سواء بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر مباشرة أو من خلال مشاركة الجزائريين في حرب شبه جزيرة القرم أو من خلال الجامعة الإسلامية.

1 - التضامن الأهلي إثر عزل السلطان عبد الحميد الثاني؛

ارتأينا من المفيد أن نقدم لموضوع التضامن الشعبي تجاه الدولة العثمانية، بقصيدة جزائرية نظمت إثر حادثة عزل السلطان عبد الحميد الثاني (1909) وتداعياتها. ومن خلال الأحداث والظروف التاريخية المعروفة وعاطفة هذه القصيدة وموقعها الجغرافي (زاوية الهامل ببوسعادة -الجلفة) يمكننا إدراك

مدى تعلق الجزائريين بدولة الخلافة تعلقا روحيا بعيدا عن الحسابات والمصالح السياسية والمادية.

من المرجح أن تاريخ كتابة القصيدة هو عام 1912، أما كاتبها فهو العالم واللغوي المعروف عبد الرحمن الديسي¹ المدرس بزاوية الهامل قرب بوسعادة (وسط الجزائر). وقد كتب عن دافع تأليفه للقصيدة: "بلغنا خلع ذلك الهمام الحامي لبيضة الإسلام وحصل لي وجد عظيم...حتى نطق بها اللسان شفقة على الأمة...".² وسمى قصيدته بـ"الحميدية" نسبة للسلطان عبد الحميد، وهي في 26 بيتا، أغلبها تنديد وتشنيع على جماعة الاتحاد والترقي واتهام لها ببعدها عن الشريعة الإسلامية ومعاداتها، ومدح لأعمال وخصال السلطان عبد الحميد الإسلامية. أما مطلع القصيدة فهو:

ثنائي على عبد الحميد حميد وحزني عليه ما حييت جديد

وكتب فيها عن جماعة الاتحاد والترقي:

تسميتمو حزب الترقى سفاهة ووضعكم للانحطاط يزيد.³

وقد قام بتشطير قصيدة الحميدية الشاعر عبد القادر بن إبراهيم المسعدي⁴ تعبيرا عن أهميتها من جهة وتأيدا لمحتواها وللسلطان عبد الحميد الثاني. وقد أثنى الشيخ عبد الرحمن الديسي على قصيدة عبد القادر المسعدي في رسالة له مؤرخة في 22 شعبان 1331 (1912) معتبرا أنها أفضل من القصيدة الأولى الأصلية.

¹ - عمر بن قينة، 1977، ص ص 50، 70

² - عامر محفوظي ، تحفة السائل بباقة من تاريخ سيدي نائل، مطبعة النعمان، برج الكيفان، الجزائر، 2002، ص 124

³ - محمد قن، الخلافة العثمانية وصدى سقوطها في الجزائر ومصر 1876 - 1924، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، ص ص 212، 213

⁴ - لحسن بن علجية، الشيخ عبد القادر بن إبراهيم المسعدي حياته وآثاره، دار الهدى، عين املييلة،

ط1، 2015، ص ص 15، 40

حَوّت القصيدة خمسين بيتا شعريا، وسنكتفي منها ببعض الأبيات ذات الدلالة التاريخية:⁵

ثنائي على عبد الحميد حميد	وشوقي إليه طارف وتليد
فيا خالعيه قد خلعتم بخلعه	لباب الهدى فما سواكم طريد
وأزعجت دين النبي وغظتم	قلوب جميع المسلمين فبيدوا
تسميتم حزب الترقى سفاهة	وهل يترقى جاهل وبليد
وما اللفظ بالدستور إلا وسيلة	لن هو للدين القويم نديد
وأكرهتم شيخا فأفتى تقية	وما قال إلا للنجاة يصيد

2 - الدعاية العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى:

كتب الباحث وعالم الاجتماع الجزائري عبد القادر جغلون عن حالة الرأي العام الجزائري تجاه الحرب العالمية الأولى: "...كان الرأي العام الشعبي يتصور تحريرا محتملا من الخارج، من ألمانيا بالذات وخاصة من الإمبراطورية العثمانية...".⁶ ويبدو أن هذا الأمر لم يكن خافيا عن السلطات العثمانية التي سعت لتقويته وإثارته انطلاقا من الشواهد التاريخية التي لمستها في مسلمي تونس والجزائر تجاه عاصمة الخلافة.

وقد تولّت "لجنة الاتحاد والتقدم" في اسطنبول الدعاية ضد دول الحلفاء، وتم تكليف المحامي التونسي علي باشا حانبة بالدعاية ضد فرنسا بالذات، وبلغ تخطيطها مرحلة الإعداد لتمردات مسلحة في شمال إفريقيا، وذلك بتنشيط خلاياها النائمة، لكن هذه المحاولات باءت بالفشل الذريع إذ لم تتمكن من تهديد النفوذ الفرنسي ولا من إشغاله بفتح جبهة إضافية ضده.⁷

كما شملت الدعاية عددا من الجرائد العثمانية أو المحسوبة على الجامعة الإسلامية التي كانت تتداول سرا بين مسلمي شمال إفريقيا، نذكر

⁵ - محمد قن، مرجع سابق، ص 324، 325 - بن علجية، مرجع سابق، ص 219، 220

⁶ - عبد القادر جغلون، الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، تر: عادل قسطون، دار الحداثة، لبنان، ط1، 1984، ص 190

⁷ - شارل روبيير أجرون، الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871 - 1919، ج2، تر: م. حاج مسعود - ع. بلعربي، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط1، 2007، ص 846، 847

منها الحضارة، السياسة المصورة، الحاضرة، العدل، هذه الأخيرة كتبت عن خطها السياسي: "خادمة للملة والجامعة والدولة"، ومثل جريدة "الشباب التركي" الصادرة في القسطنطينية باللغة الفرنسية، والتي كانت تصل كلا من تونس والجزائر رغم قرارات منع دخولها إلى المنطقة خوفاً من تأثيرها الإسلامي في النخبة المغاربية المفرنسة. حيث اتهمها الحاكم العام للجزائر بأنها نسخة من وكالة وولف الألمانية. وبأن تداولها في الجزائر أمر بالغ الخطورة⁸. وبلغ الأمر بوزير الحربية الفرنسية أن اقترح على وزارة الخارجية الفرنسية عرقلة حج مسلمي شمال إفريقيا خلال الحرب العالمية الذين سيتأثرون حتماً بالتحريض العثماني الألماني في مكة، حيث ورد في مراسلته: "لاشك أن تعصبهم قد انفجر بتحريض من أعوان تركيا". وقد اقترح لذلك تنسيقاً مع بريطانيا بإصدار أوامر تمنع تنقل الحجاج بحراً خوفاً على سلامتهم. وتشديد الرقابة على الحدود الشرقية لمصر.

ومن الملاحظ أن الدعاية الألمانية هي التي ساهمت في قوة وصول التأثيرات العثمانية الراديو والجوايسيس والمناشير.⁹

3 - الدعاية الألمانية خلال الحرب العالمية الأولى:

وبالنسبة للدعاية الألمانية فقد شرعت مبكراً في حشد وإثارة الرأي العام الإسلامي ضد الحلفاء المستعمرين للبلاد الإسلامية، وانطلقت هذه الدعاية خلال الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى. وقد تولّى قسم الشؤون الشرقية في وزارة الخارجية الألمانية إصدار عدة مجلات أشهرها:

- مجلة الشرق الجديد: التي ركزت على مستجدات الحياة السياسية في المستعمرات الأوروبية (آسيا وشمال إفريقيا). وكان يشرف عليها مكتب خاص.
- مجلة الجهاد: صدرت في برلين في مارس 1915، وكانت تطبع منها 15 ألف نسخة، وبلغات عديدة منها العربية، وهي موجهة للمسلمين وخاصة الجنود الأسرى منهم لدى ألمانيا بعد مشاركتهم في جيوش الحلفاء.

⁸ - التليبي العجيلي، صدى حركة الجامعة الإسلامية في المغرب العربي (1876 - 1918)، دار الجنوب

للنشر، تونس، ط1، 2005، ص 342، ص ص 273، 274

⁹ - آجرون، مرجع سابق، ص 851

- مجلة العالم الإسلامي: حيث صدرت باللغة العربية في اسطنبول يوم 6 ماي 1916، ثم صدرت نسخة منها باللغة الألمانية في برلين يوم 19 نوفمبر 1916. هذا إضافة إلى المطبوعات والكتب التي أشرف عليها قسم الشؤون الشرقية داخل وزارة الخارجية الألمانية، والتي نذكر من أشهرها مطبوعة: "إثارة المناطق الإسلامية ضد أعدائنا" والتي صدرت مبكرا (خريف 1914). إضافة إلى ترجمة عدد من المطبوعات التي كتبها مسلمون...¹⁰ وقد تنوعت المنشورات الدعائية الألمانية بين منشورات باللغة العربية الفصحى للمثقفين وأخرى بالدارجة لاستهداف الأميين خاصة من الجنود الأسرى من الجيوش الفرنسية. من العناوين الواردة في هذه المنشورات في ألمانيا عام 1915: إساءات فرنسا للإسلام. مرارة الغزو. إعلان الجهاد. شكوى الأعيان الجزائريين. آيات من القرآن منذرة للخونة.

كما اشتهر مكتب وولف الدعائي الألماني بنشر الأخبار الباعثة على الأمل للمسلمين والمخيبة للفرنسيين وللجوء حتى إلى الأخبار الكاذبة في سبيل ذلك.¹¹

ومن الملاحظ تركيز المناشير على العاطفة الدينية للمسلمين، وذلك بتصوير أن فرنسا أهانت المسلمين ودمرت المساجد، وتذكير المسلمين بجنايات فرنسا ضدهم، وحتى بالاستعانة -طبعاً- بآيات القرآن الكريم التي تدعو لجهاد الكفار وتحرم موالاة الظالمين منهم. وعادة ما يُختم المنشور بدعوة المسلمين للمتمردين والفرار ورفض التجنيد داخل الجيش الفرنسي.¹²

ففي منشور "ألمانيا ودولة الخلافة" ورد القول عن ألمانيا أن: "أياديها البيضاء والنقية من كل اعتداء على المسلمين". وفي منشور آخر ورد أنها: "الوحيدة التي ليست لها أطماع ترابية في تركيا"¹³. أما في منشور آخر فورد الكلام عن المجر وبلغاريا بأنهم: "المسلمون حقاً وحماة الدين وبيت الله

¹⁰ - التليي العجلي، مرجع سابق، ص ص 269، 270

¹¹ - أجرون، مرجع سابق، ص 847

¹² - أجرون، مرجع سابق، ص 846 - التليي العجلي، مرجع سابق، ص 241

¹³ - المرجع نفسه، ص 271

العتيق...فالالتحاق بجيوشهم الإسلامية هو الإيمان والتخلف عنهم ضلال وطمغان، ومن لم يع القول ويسمع النداء لنجدة الإسلام والمسلمين في هذه الملحمة الكبرى فلا قبله له بين المسلمين ولا إمام له بين المؤمنين".¹⁴

4 - انتشار الأغاني الشعبية:

يجدر التنبيه إلى أن كثيرا من الأغاني الشعبية كانت تتداول شفويا، ومن ثمّ وبمرور الزمن وتدافع الأحداث تناقصت أهميتها، فاحتفظت الذاكرة الشعبية بالمشهور منها فقط، وبوفاة حفاظ هذا الفن في مرحلة لاحقة ضاع الكثير من هذا التراث، خاصة في الجزائر التي لم تسمح ظروفها (الاستعمار وتأخر الكتابة التاريخية) بتدوين هذا الموروث التاريخي الهام. ولهذا مثل المقال الذي نشره الباحث الفرنسي جوزيف ديبارمي في المجلة الإفريقية عام 1932 العمدة في هذا الإطار، ويكفي أن نجد من بين 38 مقطعاً شعرياً أورده ديبارمي، أربعة مقاطع منها فقط مؤيدة لفرنسا. أما القصائد المكتوبة باللغة العربية الفصحى فيبدو - في حدود اطلاعنا - أن قرار منع تداول المطبوعات في كثير من المستعمرات قد جعل الشعراء يكتفون بالحفظ الشفوي دون الكتابة، أو تجنب الكتابة والنشر في جرائد خارج الجزائر خوفاً من طائلة العقاب الشديد، وما تعرض له الكاتبان الجزائريان عمر راسم وعمر بن قدور خير مثال على ذلك. ولذلك لجأ الأهالي أمام مراقبة فرنسا للأغاني المؤيدة للألمان إلى تحويل وتغيير الألحان وإدخال الرموز والتوريات والكنيات.¹⁵

وتكمن أهمية الأغاني الشعبية في أنها تحمل محتوى سياسياً وهو مناهضة فرنسا وتمني انتصار العثمانيين والألمان، وكذلك قوة انتشارها كبديل عن الصحافة في المدن الكبرى، أما المدن الصغيرة والقرى والأرياف والأسواق فمن المعروف أن المدائح والقوال (القوال: يُعرف من يقول الشعر وحتى من يحفظه بهذا الاسم في بعض مناطق الوسط الجزائري، والقاف تنطق معقوفة) هما أهم وسائل الدعاية والإعلام. و لذلك يمكن القول بأن الأغاني

¹⁴ - التليلي العجيلي، المرجع السابق، ص 273

¹⁵ - أجرون، مرجع سابق، ص 852

الشعبية هي أقصى ما بلغه التضامن الأهلي، أي اقتصار الأمر على الولاء العائلي -كما سنبين -.

من أمثلة ذلك أغنية جزائرية ورد في معناها: بروسيا استقرت في البلد وألحقت الهزائم بالمسيحيين فغدوا طعاما للطيور الكاسرة، فهنا نلاحظ أن الشاعر قد اعتبر أن بروسيا ليست من ضمن المسيحيين.

وهناك أغنية أخرى ورد فيها: "يا ربي ياسيدي واشي عملت أنا، ووليدي ربيتو بيدي، وأدأتو الدولة الرمية". أي يا الهي يا سيدي ما الذي فعلته أنا حتى استحق هذه العقوبة، فولدي قمت أنا بتربيته لتقوم الدولة الرومية (فرنسا) بخطفه وتجنيدته في جيشها.

وفي مقطع من مقاطع أغنية أخرى:

"الله ينصر الملك غيوم. يا عظيم خلص ملكك في الدنيا من الجنس الانجليزي آمين يا رب العالمين".¹⁶

واشتهرت أغنية في مدينة الجزائر على نطاق واسع خلال الحرب العالمية الأولى تقول: "الحاج غيوم سطع نجمه، أمام أماء هل يقدرّون عليه؟" وفي مقطع آخر تقول: "إنه يحارب في السماء بالمنطاد وتحت الماء بالغواصات وفوق الأرض بمدفع عيار 420. إنه المنتصر وسوف يمحق مدينة باريس"¹⁷. أما الأغنية التالية فتكذب ادعاء فرنسا أن الجزائر جزء منها، وتتنبأ بانتزاع الألمان لها من يد الفرنسيين لتحريرها كما كانت، ويطلع سعد الإمبراطور الألماني قيوم الثاني (غليوم) (Guillaume) الذي يعتبره صاحب الأغنية حاجا بما يوحي أنه مسلم أنهى كل فرائضه الدينية الإسلامية :¹⁸

يا الفرنسيس واش في بالك	الجزائر ما شي ديا لك
ايحي لا لمان يديها لك	لا بد ترجع كيف الزمان
آي أي كيف نعمل له	الحاج قيوم يطلع سعده
ثم تصف الأغنية كيف تعم البشرى والاحتفالات بالطبول الجزائر:	

¹⁶ - المرجع نفسه، ص 852

¹⁷ - أجرون، مرجع سابق، ص 845

¹⁸ - Desparmet , (Josef), la chanson d'Alger pendant la grande guerre , in Revue Africaine , N 73 , 1932, OPU, p p 57 ,83

الجزائر لك البشرى بسناجق ترفرف خضرا

تأتي في الصبحة بكرة بطبول أوزناجية

ثم يتوسل صاحب الأغنية لله بأن ينصر الألمان والعثمانيين على أعدائهم دول
المحور: الروس (الموسكو)، الفرنسيين، الانجليز:¹⁹

يا حي يا قيوم الله ينصر الملك قيوم

يا ربي يا ذا الملك الله يخذل جيش الموسكو

نتوسل لك بالخواص الله يذل اجيوش لا فرانص

يا جبار يا عزيز اخلي الملك من جنس لانجليز

آمين آمين آمين آمين يا رب العالمين.

ويذكر ديبارمي - الذي عاصر أحداث الحرب العالمية الأولى - بأن هذه الأغنية: " سُمعت في الأيام الأولى من إعلان التعبئة العامة في الحي العربي بالجزائر العاصمة على شفاه الأهالي، وقد ملأت الأحياء والمقاهي والأزقة، و تتلقاها مسامعنا بواسطة اليهود والإسبان العاملين في باب الواد وتلاميذ المدارس، ثم ما لبثت أن انتشرت كالهشيم في أوساط الناطقين بالعربية حتى الصحراء، وفي أوساط البربر حتى بجاية، وفي تونس. وانتشرت غربا إلى سهل الشلف ومعسكر ووهران وتلمسان وتازة، ولم أبحث فيما وراء ذلك...".²⁰

ويورد ديبارمي معلومة مهمة حول شدة تعلق الأهالي بأسطورة أن غليوم سيحررهم من الاحتلال الفرنسي، وإذا كان أصحاب المدن بفعل خضوعهم لدعاية فرنسية مضادة ولاطلاعهم على أخبار وتطورات الحرب قد بدأوا يفقدون هذا الأمل منذ عام 1917، فإن سكان القرى والأرياف ظلوا يرددون هذه الأغنية والأسطورة حتى بعد انتهاء الحرب بثلاث سنوات.²¹

ومن المهم كذلك في المجموعة الغنائية التي جمعها ديبارمي وجود عدد من الأبيات باللهجة البربرية تتطابق في معانيها مع القصائد العربية.

ويجب أن نلاحظ بأن الباحث ديبارمي قد ربط ربطا عضويا بين الدعاية العثمانية والتضامن الأهلي معها من جهة وحركة التمردات والانتفاضات التي

¹⁹ -Desparmet , p 83

²⁰ Desparmet , p 59

²¹ -Desparmet , p 59

شهدتها الجزائر مثل بني شقران (معسكر) والأوراس 1916، بغض النظر عن أسبابها المباشرة.²²

ومن جهة أخرى فقد تمكنا من الحصول على قطعة من أغنية كانت متداولة في الأعراس (الزفاف) في منطقة الجلفة (وسط الجزائر) نقلها لنا الأستاذ المتخصص في تراث منطقة الوسط الجزائري الأستاذ علي عرعور، ومن المؤسف أننا لا نستطيع تحديد تاريخ تأليفها ولا مؤلفها، ولكن ما يهمنا في هذه القطعة أنها تفتخر بالمنتوج الألماني ضد المنتوج الفرنسي، وتصف الفرنسيين بالكفار دون الألمان، ويجب أن نلاحظ كيف تسلس البعد السياسي إلى الحياة الشعبية وبطريقة عضوية احتفالية:²³

ندق لها خلخال ايصالي من فضة راها تزيان
ما هو شي من فضة ذا الكافر يا عيني فضة للمان
المعنى العام للبيتين الشعريين باللغة العربية الفصحى:
سأصنع لها خلخالاً يرنُ من فضة تزداد جمال
هذه الفضة ليست من صنع هذا الكافر (فرنسا) يا عيني إنها فضة الألمان
5 - كثرة النبوءات:

من المعروف أن ظاهرة التنبؤ بالمستقبل قد شغلت الإنسان منذ القدم، و رغم تعديل الأديان لهذه الحالة النفسية إلا أن الأوساط الشعبية ظلت تتعامل بها وتصدق جزءاً منها في حالات ضعفها أو يأسها أو وقوعها تحت تأثيرات ما... سواء من خلال الرؤى أو الجفر أو قراءة الطالع... الخ
ومن أشهر ما تم تداوله خلال الحرب العالمية الأولى نجد نبوءة الولي الصالح المصري زرقاوي الذي أعلن أن ساعة الخلاص قد حانت. وأن فرنسا ستنهزم في الدردنيل...²⁴، كما تم تداول عدة أساطير في بلدان المغرب العربي بعد انعقاد الآمال على تدخل ألماني لحماية المغرب الأقصى من التنافس الأوروبي (الفرنسي الانجليزي الاسباني)، من بينها هذه الأسطورة التي رواها المؤرخ

²² - Desparmet , p 60

²³ -علي عرعور ، مقابلة شخصية مع الباحث، الجلفة، الجزائر ، 10 أوت 2012

²⁴ - أجرون، مرجع سابق، ص 852

التونسي عثمان الكعاك، والتي تتحدث عن ظهور حقيقة أن إمبراطور ألمانيا هو الابن الشرعي للسلطان عبد الحميد الثاني الذي أرسله ليتدرب ويدرس في البلاط الألماني . ومنها أسطورة تتحدث عن احتفاظ الألمان بالرسالة التي أرسلها الرسول محمد (ص) إلى عدة أمم، إذ لم يقم إمبراطور ألمانيا بتمزيقها كما فعل ملوك ذلك الزمن، وأن إسلام الألمان أمر حتمي.²⁵

وظاهرة تمجيد الامبراطور (قيوم) واعتقاد إسلامه وتحريره للمسلمين سجلها المفكر الجزائري مالك بن نبي في مذكراته، حيث كتب: "...وفي تلك الظروف بدأت تظهر أسطورة الحاج قيوم، وبدأ الشعراء الشعبيون يمجّدونه، مستعينين لذلك بالأدب الشعبي القديم يبعثونه من سباته". كما سجل بأن هذه الأوهام قد سيطرت لفترة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى في العقل الجمعي للجزائريين. وفي رأينا أنها ربما قد زالت بفضل التراجع الفعلي لدول المحور ثم إعلان الاستسلام النهائي.²⁶

6 - موقف المجندين الجزائريين في الجيش الفرنسي:

من المهم البحث في موقف المجندين المسلمين من قضية التضامن مع الدولة العثمانية وحليفاتها ألمانيا، وذلك لاعتبارات خاصة، منها أن موقفهم يتحكم في توجيه وسير المعارك ومن ثم الحرب ككل، وكذلك باعتبارهم الفئة الأولى المستهدفة في الدعاية الألمانية العثمانية. وحسب المؤرخ الفرنسي شارل روبير أجرون فتمردات المجندين الجزائريين كانت رفضا لظروف العمل وليست تأييدا للأتراك، نذكر من هذه التمردات تمرد فرق القناصة المشاة نهاية 1917 وتمرد ثكنة سان لو أثناء ترحيلها إلى الجبهة الحربية. إضافة إلى حالات الفرار المتعود عليها في 1916 وبداية 1917. ونتيجة لذلك اعتبر المسؤولون الفرنسيون أن الجزائريين لم يكونوا مخلصين للعثمانيين مطلقا.²⁷

²⁵ - التليبي العجيلي، مرجع سابق، ص 271

²⁶ - امحمد دراوي، الجامعة الإسلامية والجزائر 1876 - 1924، مذكرة ماجستير في التاريخ المعاصر،

قسم التاريخ، جامعة الجزائر، ص 98

²⁷ - المرجع نفسه، ص 91

وقد يُعزى هذا التجاهل إلى عامل صرامة القوانين تجاه المتعاطفين مع الدولة العثمانية وألمانيا، وقد تم إعدام 11 مجندا حاولوا الفرار من الجيش الفرنسي، وهذه الحالات بقيت تتكرر من حين لآخر دون أن تبلغ مستوى الظاهرة العامة أو الحالة المقلقة للسلطات العسكرية الفرنسية. ويدعم هذا الرأي ملاحظة أن فرنسا قد استطاعت الاستمرار في عملية التجنيد، ففي بداية 1918 جُنِّدَت 60 ألف جزائري.²⁸

ولا يمكن التطرق لموضوع تمردات المجندين الجزائريين دون الإشارة إلى قضية الملازم الأول الجزائري المدعو الحاج عبد الله بوكابوية (بوكابويا) الذي فرّ من الجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى، والتحق باسطنبول بعدما تأثر بالدعاية الألمانية العثمانية خاصة من طرف صالح الشريف في اسطنبول، وتمكن الحاج بوكابويا من إصدار مؤلفين الأول: "الإسلام في الجيش الفرنسي"، أما الثاني في عام 1917، وهو: "الجنود المسلمون في خدمة فرنسا"²⁹. والهدف السياسي من طبع الكتابين واضح وهو التنديد بسياسة فرنسا لتجنيد الجزائريين رغما عنهم ضد دولة الخلافة وإساءة معاملتهم وتمييزهم عن المجندين الفرنسيين، ليخلص إلى الولاء الروحي الكبير لمسلمي شمال إفريقيا تجاه الدولة العثمانية. معتبرا أن العلاقات التي تجمع مسلمي شمال إفريقيا بالدولة العثمانية هي مصدر فخر واعتزاز لهم. فعلى العثمانيين حماية هؤلاء وتطويرهم وعلى المسلمين الآخرين مقابلتهم بالطاعة الأخوية.³⁰

7 - إشاعة الانتفاضات:

يمكن القول أن فرنسا استطاعت على العموم التحكم في ظاهرة التضامن الأهلي مع الدولة العثمانية وذلك باعتراض وإفشال الدعاية العثمانية - الألمانية خاصة في الجزائر، بداية بقيام الحاكم العام في الجزائر بإصدار

²⁸ - آجرون، مرجع سابق، ص 836

²⁹ - الهزري بن جلول، الجزائريون والتضامن العربي الإسلامي 1911 - 1954، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر 2، 2014، غير منشورة، ص 65. - امحمد دراوي، مرجع سابق، ص 122

³⁰ - التليلي العجيلي، مرجع سابق، ص 267، 268

تعليمات في 17 أوت 1914 تمنع دخول المنشورات الأجنبية قبل مراقبتها في مصالح الترجمة والتفسير.³¹

ومن المفاجئ أن الجزائريين قد استجابوا لنداء الجهاد الذي أصدره الخليفة العثماني من مسجد الفاتح في 14 نوفمبر 1914 ثم في الواحد والعشرين منه ضد المسيحيين في الأقطار الإسلامية³²، كما لوحظ أن الجزائريين لم يتمكنوا من القيام بحركة حاسمة فكريا كالمطالبة بالاستقلال مثلما فعل التوانسة أو حاسمة عسكريا بالتخطيط لتمردات عامة كما حصل في الجنوب التونسي³³، فاقصر الأمر على مجرد توقعات وشكوك بظهور تحرك عسكري في منطقة وادي ميزاب ضد فرنسا لعدة عوامل أهمها تحركات التجار الميزابيين نحو مناطق التأثير السنوسي (تونس. ليبيا) وشخصية سليمان الباروني المحسوبة على الجامعة الإسلامية وعلاقاتها القوية بالشيخ أبي اليقظان، خاصة أنه درس سابقا بميزاب على يد القطب (أطفيش)، كما أنه عاد لزيارتها قبل اندلاع الحرب العالمية، واحتفظ بمراسلات كثيرة مع أبنائها ولقاءات جمعته بهم في تونس وربما في غيرها³⁴. كما أشاع بعض الميزابيين العائدين من حج عام 1915 أن السنوسيين المتحالفين مع الدولة العثمانية سيزحفون على ورقلة انطلاقا من ليبيا. وقام أحد طلبة قورارة بفتح اكتتاب لتموينها وتحصينها انتظارا لوصول سليمان الباروني الذي سيعلم التمرد. لكن السلطات الفرنسية قامت بعزل قائد المدينة واعتقال هذا الطالب في تادميت، ولم يغادرها إلا بعد نهاية الحرب³⁵، وهناك مبرر آخر عزز هذه الشكوك هو حركة الرفض الكبيرة التي رافقت مشاريع التجنيد الإجباري وأدت إلى إلغائها.

³¹ - المرجع نفسه، ص 341. - آجرون، مرجع سابق، ص 851

³² - آجرون، مرجع سابق، ص 843

³³ - المرجع نفسه، ص 850

³⁴ - محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج 2، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، دت، ص 274

- أبو القاسم سعد الله، بحوث في التاريخ العربي والإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 2003، ص 407

³⁵ - التليبي العجيلي، مرجع سابق، ص 282

8 - شخصيات جزائرية موالية للدولة العثمانية:

كان معروفا لدى الرأي العام وجود حزب عثماني مؤيد للجامعة الإسلامية في أفكاره وكتابات وصحافته. لكن الحرب العالمية الأولى أظهرت مفاجئات أخرى للسلطات الفرنسية، أهمها قصة قاضي منطقة بسكرة الذي أرسلته السلطات الفرنسية لتهدئة الأمور في طولقة، لكن تبين أنه متأثر بفكرة الجامعة الإسلامية، وبعدها تم احتجاز مراسلاته (الخطيرة) تبين أنه على اتصال بالوطنيين التوانسة وأحد الضباط الإيطاليين المكلفين بالاتصال. وذكر ديارمي أن إحدى مراسلات هذا القاضي إلى أحد الجزائريين في أول نوفمبر 1914 جاء فيها: "أتمنى أن تندلع ثورة عارمة فنطلق عليها اسم الثورة الجزائرية". كما كتب في فاتح ديسمبر 1914: "كنت عازما على تأليف قصة اجتماعية وتاريخية تروي معاناة الشعب الجزائري وتُصور آلامه وأحزانه". ومن الجدير بالملاحظة أن ابنه كان يتولى نشر هذه المراسلات في شكل مناشير باللغة العربية يتصدرها شعار يتكون من هلال ونجمة.³⁶

أما الشخصيات الموالية للدولة العثمانية ذات الشهرة والدور الكبيرين خاصة خلال الحرب العالمية الأولى فهي:

- الأمير علي بن الأمير عبد القادر الجزائري:

مثلت عائلة الأمير عبد القادر محورا هاما من محاور اهتمام الدولة العثمانية في البلاد العربية، ويعود ذلك بكل وضوح إلى شهرة كبيرها الأمير عبد القادر كشخصية مقاومة للفرنسيين ثم كشخصية عالمية بعد مواقفه المعروفة في بلاد الشام بدءا بفتنة الشام خلال القرن التاسع عشر إلى غيرها من القضايا، كما زاد هذا الاهتمام بفضل تزايد الأدوار والمواقع التي تواجد فيها أبناء وأحفاد الأمير عبد القادر بعد ذلك حتى صارت تحمل اسم عائلة الأمير عبد القادر، من أشهر هؤلاء نذكر الأمير علي الذي قامت السلطات العثمانية بترقيته من نائب لدمشق في مجلس المبعوثان إلى منصب نائب لرئيس المجلس نفسه. وكان من المعروف أن ولاءه للعثمانيين كان كبيرا، إذ شغل منصب نائب رئيس فرع جمعية الاتحاد والترقي في دمشق، كما ساهم في حشد وتنظيم

³⁶ - آجرون، مرجع سابق، ص 845

القبائل الليبية إبان حرب طرابلس ضد الايطاليين³⁷، ويهمننا هنا دوره في الحرب العالمية الأولى فقد تم استقباله من طرف السلطان العثماني في ديسمبر 1914 تحضيراً لإرساله سفيراً إلى ألمانيا بهدف زيارة الأسرى المسلمين المجندين في الجيش الفرنسي خاصة الجزائريين منهم، حيث استهدف التأثير فيهم وتوجيههم لمناصرة الخليفة العثماني وحليفته ألمانيا إرضاء للدين وتحريراً لأوطانهم المستعمرة من طرف فرنسا. ولا شك أن لقاءات كثيرة قد جمعت الأمير علي بالأسرى الجزائريين في ألمانيا حسبما تمليه ظروف المرحلة. فقد حضر تدشين مسجد بناه الألمان في محتشد زوسن قرب برلين، وألقى عدداً من الخطب هناك.³⁸

إن قراءة متفحصية في النداء الذي وجهه الأمير علي لمسلمي شمال إفريقيا تلخص لنا العناصر الأساسية المتكررة في خطابات الدعاية الألمانية العثمانية.³⁹

جاء عنوان النداء "كذب فرنسا على الموتى" في إشارة من الأمير علي إلى الدعاية الفرنسية التي تدعي أن عائلة الأمير عبد القادر كانت محبة وموالية لفرنسا، فكتب بأن والده: "ناصر فرنسا العدا، وحاربها طيلة ستة عشر سنة وتوفي ساعطاً عليها لاعنا لها" وكذلك عائلته من بعده عادوا فرنسا: "وأن أبناء وحاشيته على مذهبه لأنهم لم يروا - على حد قوله - من الفرنسيين إلا البلاء والظلم...، وأهل الجزائر وتونس كذلك يعادون فرنسا التي أذلتهم ثم أجبرتهم على دخول الحرب ضد مسلمين مثلهم وزادت أن خصّتهم بالصفوف الأولى في الحرب (خطوط الموت)، يقول الأمير علي: "...وأهل تونس والجزائر أقوى شاهد على كذب هؤلاء، إذ كيف يمكن لهم موالة فرنسا التي كالت للعرب

³⁷ - الهزري بن جلول، مرجع سابق، ص 49

³⁸ - نادية طرشون وآخرون، الهجرة الجزائرية نحو المشرق العربي أثناء الاحتلال، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، وزارة المجاهدين، الجزائر، طبعة خاصة، 2007، ص ص 310، 317

- التليبي العجيلي، مرجع سابق، ص ص 247، 248

³⁹ - المرجع نفسه، ص ص 248، 249

الذل والهوان، ثم ساقتهم إلى مصارع هذه الحرب الضروس مجبورين مقهورين، تاركين أطفالهم ونساءهم بدون عائل ولا معين، ساقتهم فرنسا إلى القتال لغايتها ومصالحها الذاتية، ساقتهم ليقاتلوا إخوانهم في الدين والملة...واضعة لهم في مقدمة الصفوف ليكونوا طعمة لأول نار تخرج من أفواه المدافع، فمات منهم من مات..."

ولإقناع المغاربة أسهب الأمير علي في بيان جهود الألمان لخدمة الإسلام ومعاملة الأسرى المسلمين المغرر بهم في الجيش الفرنسي، وذكر كيف أن هذه السياسة الألمانية جعلت هؤلاء الأسرى يغيرون موقفهم، فهم: "يدعون للدولتين العثمانية والألمانية بالنصر والتمكين، ويتمنون لو أنهم كانوا في صفوف إخوانهم يقاتلون معهم -جنباً إلى جنب - أعداءهم وأعداء الإسلام ليظهروا أنفسهم من الإثم والوزر الذي جرّهم إليه أعداؤهم".

وختم ندائه بدعوة المسلمين إلى الاتحاد والجهاد ضد العدو، وأن يقوموا: "يدا واحدة باسم الله تعالى، وباسم الجهاد والدين والشرف والذمة ويرفعوا عن أعناقهم نير الاستعباد ويكسروا قيد الاسترقاق..."

كما كان للأمير علي دور في الإشراف المالي على الجريدة الأسبوعية "المهاجر" التي تولّى تحريرها المهاجر الجزائري محمد التهامي شطة في دمشق منذ 1912 وإلى غاية 1915، هذه الجريدة جعلت هدفها الدفاع عن مصالح المغاربة، بدعم من السلطات العثمانية⁴⁰. كما أن دوره سيبرز أكثر في دعم حركة أخيه عبد المالك الجهادية في المغرب الأقصى باعتبارها حركة موجهة ضد الوجود الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى.

- عمر راسم ((1884 - 1959)):

مثّل عمر راسم أهم شخصية جزائرية مثقفة مناصرة للعثمانيين، وذلك من خلال قلمه الصحفي وأفكاره الإسلامية. فقد حوكم إثر الحرب العالمية الأولى بتهمة التجسس لصالح الدولة العثمانية، ومكث في السجن بين 16 نوفمبر 1915 و 1921. و تتحدث الرواية الفرنسية أن إدارة البريد الانجليزي في مصر قد وقعت بين يديها رسالة موجهة من مجموعة من الجزائريين إلى جريدة

⁴⁰ - الهزشي بن جلول، مرجع سابق، ص 57، 58. - طرشون، مرجع سابق، ص 286

"الشعب" المصرية بغرض نشرها، والرسالة تتضمن دعوة للمسلمين بوجوب طاعة خليفة الإسلام (السلطان العثماني) واجتناب إعانة أعداء الإسلام (فرنسا وبريطانيا). وبمقارنة الخط تم التعرف على الكاتب وهو عمر راسم المعروف بخطه المميز.⁴¹

وفي مقال لعمر راسم نشره عام 1916 بعنوان "تركيا واليهود" دافع عن دولة الخلافة وفضح دور اليهود في إضعافها طيلة تاريخها الممتد عبر قرون، كما اتهم عددا من الوزراء والمسؤولين العثمانيين بموالاتة اليهود وتحقيق مخططاتهم الهادفة للقضاء على البعد الديني لها. فكتب عن مدحت باشا: "فهو ابن هذه الطائفة المنفذ لأحكامها وتلميذ بجمعية الاتحاد الإسرائيلي العام...". أما السلطان محمد الخامس فكتب عن تنصيبه خلفا للسلطان عبد الحميد "إنها عملية مُحكمة الدس والاحتيايل. فما هو إلا مرآة يحرفون بها أنظار المسلمين عن الصواب..."⁴²، وفي آخر مقال له حذر راسم من النهاية المأساوية التي تنتظر الدولة العثمانية إذا ما استمر تسيير شؤونها في يد جماعة الاتحاد والترقي: "إن بقيت دولة الخلافة تحت سلطة "قراصو" وهو ممن خلعوا عبد الحميد، ورئيس حزب الاتحاد اليهودي " جاويد" و"حقي بشا" بائع طرابلس، فلا شك أن تقع الدولة في مخالب اليهود..."⁴³.

- عمر بن قدور (ت 1932):

عُرف عمر بن قدور بمناصرتة لفكرة الجامعة الإسلامية ومراسلاته الصحفية العديدة مع الصحف التونسية والمصرية والتركية...وقد تمكن من تأسيس جريدة خاصة به باسم "الفاروق" التي صدرت منذ 1913، وجعلت مبدأ

⁴¹ - محمد ناصر، عمر راسم المصلح الثائر، مطبعة لافوميك، الجزائر، 1984، ص 14. ص 33

- امحمد دراوي، مرجع سابق، ص 118، 119

⁴² - محمد ناصر، المرجع السابق، ص 41

⁴³ - المرجع نفسه، ص 44

الوحدة الإسلامية (الذي يتطابق ومفهوم الجامعة الإسلامية) أحد مبادئها الخمس.⁴⁴

وباندلاع الحرب العالمية الأولى ودخول الدولة العثمانية الحرب ضد الحلفاء لم تطق السلطات الفرنسية صبرا على جريدة "الفاوق" بعد المقال الذي تحدى به ابن قدور سلطات الرقابة الفرنسية التي حذّرت من نشره، باعتباره مقالا ينتصر ويؤيد الدولة العثمانية والمحور ضد الحلفاء. لذلك قامت السلطات الفرنسية بمصادرة الجريدة وسجن ابن قدور في مدينة الجزائر ثم حوّل إلى عين ماضي (الأغواط).⁴⁵

- الشيخ محمد الخضر حسين:

لا يخفى على الباحث في التاريخ الجزائري المعاصر الاختلاف الحاصل بين الكتابات التونسية والجزائرية في نسبة شخصية محمد الخضر حسين إلى أحد البلدين الجزائر وتونس، ومرد ذلك إلى أن عائلته الكبيرة ظلت مستقرة ببسكرة بينما استقر فرع منها بتونس أين ولد محمد الخضر حسين وعاش، واحتفاظ هذا الفرع بصلاته بالعائلة الأم في بسكرة. وبعيدا عن هذا الاختلاف، فإن إدراجنا لهذه الشخصية يعود إلى ارتباط الجزائريين به وتأثرهم بأفكاره ومؤلفاته ومواقفه وزياراته لها ولقاءاته زعماء الفكر والإصلاح فيها أمثال محمد بوقندورة وعبد الحليم بن سماية ومحمد بن أبي شنب و عبد القادر المجاوي...⁴⁶

ففي بداية الحرب العالمية الأولى توجه الشيخ محمد الخضر حسين رفقة عدد من العلماء والنشطاء المحسوبين على الدولة العثمانية إلى ألمانيا بهدف لقاء الأسرى المسلمين من الجيش الفرنسي، فحضر رفقة سفير تركيا بألمانيا

⁴⁴ - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض للثقافة، بيروت، لبنان، ط3، 1983، ص ص 243، 244

-صالح خريفي، عمر بن قدور الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1984

⁴⁵ - محمد قن، مرجع سابق، ص ص 215، 216

⁴⁶ - قوبع عبد القادر، الحركة الإصلاحية في منطقتي الزيبان وميزاب بين سنتي 1920 و 1954، دار طليطلة، الجزائر، ط1، 2013، ص ص 70، 71

-علي الرضا الحسيني، صفحات من سيرة الإمام محمد الخضر حسين وأخويه زين العابدين ومحمد المكي، الدار الحسينية للكتاب، دمشق، 2000. ص ص 11، 20

تدشين مسجد في معسكر الهلال (في فنتزدورف (Wunsdorf) 30 كم عن برلين)، وألقى فيها الشيخ الخضر كلمة دعائية مفادها أن ألمانيا تبني المساجد للمسلمين بينما قامت فرنسا في الجزائر بتحويل جامع صالح باي في قسنطينة والجامع الكبير في عنابة إلى ثكنات عسكرية. ومن الملاحظ أن هذه الخطبة تمت طباعتها وتوزيعها في المعارك لتبليغها لجنود شمال إفريقيا.⁴⁷

9 - مواقف تضامنية شعبية أخرى:

وكما ذكرنا من قبل بفعل الإجراءات الصارمة التي اتخذتها مصالح الرقابة الفرنسية في الجزائر فإن الدعاية الألمانية العثمانية لم تستطع التحرك بسهولة وإذا ما كتب لها الوصول إلى الجزائر فإنها سرعان ما تكتشف، فالشرطة الفرنسية تمكنت من مراقبة المدّاحين ومعاينة عدد منهم بتهم نشر الفوضى وإذاعة الأخبار الكاذبة وتأييد العدو، وحجزت كثيرا من صور القادة الأتراك التي كان يتم تداولها تعبيرا عن التأييد والولاء. وقد اعترفت السلطات الفرنسية بأن صور الإمبراطور الألماني كانت: "تزين جدران المنازل" في كل المستعمرات الفرنسية والانجليزية⁴⁸. كما اعترفت بأن صور السلطان العثماني وقادته كانت تزين جدران البيوت وقاعات الاستقبال والاجتماعات العائلية ما يعبر بعمق عن: "ولاء الجزائريين الواضح لتركيا". وهناك صور أخرى للسلطان العثماني وقد كتب أسفلها: "اللهم انصر سلطاننا"، بل امتد الأمر إلى صور الإمبراطور الألماني والإمبراطور النمساوي -الهنگاري.⁴⁹

وبلغ التمويه لدى الجزائريين غايته خوفا من عيون الرقابة حتى أن السلطات الفرنسية استطاعت اكتشاف إحدى الشقق المخصصة لاجتماعات عدد من الشباب القسنطيني المؤيد للدولة العثمانية بدليل وجود لوحتين حائطيتين تمثلان صورتين كل من أنور باشا وشوكت باشا. كانت الشقة مشبوهة بأنها مخصصة لتدخين المخدرات (الكيف). وذكر الباحث الجزائري

⁴⁷ - محمد قن، مرجع سابق، ص ص 225

⁴⁸ - التليلي العجيلي، مرجع سابق، ص 284

⁴⁹ - العجيلي، مرجع سابق، ص 289

محمود بوعباد بأن عددا من الجزائريين تعهدوا بإطلاق لحاهم حزنا على الدولة العثمانية في حال انهزامها في الحرب، وقد برّ واحد منهم بذلك.

ويبدو أن الجهة الشرقية الجزائرية قد تأثرت بحركة الجامعة الإسلامية والدعاية الألمانية العثمانية أكثر من الجهة الغربية بفعل قربها من تونس وليبيا، ففي جهة سطيف كانت الأصوات تنادي بحياة ألمانيا والدولة العثمانية وسقوط فرنسا⁵⁰. وفي فيفري 1915 تمت معاقبة أحد الأهالي الجزائريين بشهر سجن وبغرامة قدرها مئتي فرنك فرنسي لأنه صاح بعبارة: " تحيا ألمانيا وتسقط فرنسا " ⁵¹.

10 - التضامن الجزائري مع فرنسا:

من باب الموضوعية والأمانة التاريخية ارتأينا أن ندرج هذا العنصر حتى لا يتوهم القارئ أن الجزائريين كانوا في صف وموقف واحد في ولائهم للدولة العثمانية وألمانيا. فالنخبة المفرنسة والممثلين الجزائريين في مختلف المجالس الفرنسية وعدد كبير من ممثلي شيوخ الزوايا والطرق الصوفية والأعيان والعائلات الكبيرة كانوا يجاهرون ويزيدون في ولائهم لفرنسا التي وصفوها بـ " حامية الديمقراطية والعدالة والحضارة " وأوضحوا بأن تركيا لا تمثل الإسلام والمسلمين، وأن الخلافة الإسلامية قد ألغاهما الشباب التركي أو جمعية الاتحاد والترقي. ولكن هذا الموقف على أهميته إلا أنه يجد في الطمع في المصالح المادية وفي ضرورة التحالف وفي الخوف من الانتقام الفرنسي المركز على هذه الفئات الخطيرة، يجد في كل هذا ما يفسره. فهو تضامن وولاء مبنيان على أسس مادية نفعية خاصة وضيقة لا على أسس روحية دينية عامة.

من ذلك أن ابن المقاوم الشهير المقراني قد تطوع في صفوف الجيش الفرنسي ضمن الفرسان الذين انطلقوا عام 1914 دفاعا عن فرنسا، كما نذكر إبراهيم بن الحاج محمد بن بلقاسم شقيق شيخ زاوية الهامل الذي تطوع خلال الحرب ضمن فيلق وهذه الخدمات أهّلتها للقاء الرئيس الفرنسي ميليران (Millerand) ونيل

⁵⁰ - الهزوشي بن جلول، مرجع سابق، ص 53

⁵¹ - التليلي العجيلي، مرجع سابق، ص 284

وسام جوقة الشرف ومنصب قايد الصبايحية الجزائريين، وتمت الاستفادة منه في رفع معنويات الجنود المسلمين الجرحى في المستشفيات الفرنسية.⁵²

أمّا من تم اختيارهم لأدوار ميدانية باقتراح من الحاكم العام فكانوا من الموظفين الدينيين، مثل بومزراق المقراني نجل المقاوم المقراني والذي تولى منصب مفتي منطقة الأصنام (الشلف)، وكذلك عبد الرحمن القطرانجي الذي تولى وظيفة عدل بالمحكمة المالكية بمدينة الجزائر، قبل أن يحوّل إلى فرنسا لإمامة الجنود المسلمين الجرحى في المستشفيات الفرنسية.

ولم يتوقف دور بومزراق المقراني على الإمامة في فرنسا، بل كُلف بالرد على كتاب صالح الشريف "إرشاد العباد إلى حقيقة الجهاد" الذي ناصر فيه الدولة العثمانية عاصمة الخلافة الإسلامية. كما ردّ المقراني رفقة عبد الرحمن القطرانجي على كتاب "الإسلام في الجيش الفرنسي" لمؤلفه الملازم الأول الحاج عبد الله بوكابويا. وهو ردّ طبع تحت إشراف وزارة الحربية الفرنسية وجاء بعنوان "رد على أكاذيب". ونذكر من رسائل التأييد رسائل المستشارين البلديين الأهليين في كل من وهران وقسنطينة الذين أكدوا تعلقهم المطلق بفرنسا، ورسالة مجلس إدارة الجمعية الثقافية الإسلامية لمدينة الجزائر.⁵³

وصرّح محمد الصالح بن جلّول بأن الانتماء لفرنسا لا ينفي الرابطة الروحية التي تربط الجزائريين بباقي المناطق الإسلامية، لكن مبادئ ابن جلّول السياسية والسياق العام الذي كان يتحرك فيه كانا يطابقان المدلول التالي: الرابطة الروحية (الدينية) للجزائريين تجاه المسلمين لا تنفي ولاءهم السياسي لفرنسا، يقول ابن جلّول: "الولاء الإسلامي الجزائري لفرنسا متوافق مع التضامن الإسلامي. والإسلام... لم يكن... وسيلة تفرقة بين المسلمين... وسنبقى نشعر دائما أننا إخوة لمسلمين آخرين سود وصفر، مثل الكاثوليك الذين يشعرون أنهم أبناء كنيسة واحدة"⁵⁴ الفرنسية بنشر رسائل هؤلاء حتى خارج الجزائر، ففي جريدة "الزهرة"

⁵² - التليلي العجيلي، المرجع نفسه، ص 361

⁵³ - التليلي العجيلي، مرجع سابق، ص 349. ص 362

⁵⁴ - التليلي العجيلي، الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (1881 - 1939)، منشورات

كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، تونس، ط 2، 2009، ص ص 173، 174

التونسية يذكر الباحث التونسي العجيلي التليلي بأنها كانت تنشر تباعا رسائل هؤلاء تحت عناوين مختلفة: إخلاص الجزائريين، إخلاص شيخ طريقة، شواهد . الإخلاص... وكذلك في جريدة "La Dépêche Tunisienne" التي نشرت بدورها رسائل لكثير من الشخصيات الدينية والعائلات الكبيرة الجزائرية مثل عائلة المقراني... بين أوت 1914 2009، ص ص 173، 174)، و بدوره أرسل مفتيا المذهبين المالكي والحنفي في كل من الجزائر وقسنطينة فتوى تأييد لفرنسا في حربها .

ونظرا لتأثير شيوخ الطرق الكبير وامتدادهم الواسع، فقد قامت السلطات بنشر رسائل هؤلاء حتى خارج الجزائر، ففي جريدة "الزهرة" التونسية يذكر الباحث التونسي العجيلي التليلي بأنها كانت تنشر تباعا رسائل هؤلاء تحت عناوين مختلفة: إخلاص الجزائريين، إخلاص شيخ طريقة، شواهد . الإخلاص... وكذلك في جريدة "La Dépêche Tunisienne" التي نشرت بدورها رسائل لكثير من الشخصيات الدينية والعائلات الكبيرة الجزائرية مثل عائلة المقراني بين أوت 1914 وفيفري 1915 وفيفري 1915.⁵⁵

وتمثل مجلة العالم الإسلامي R.M.M أهم الوثائق التي احتفظت بشواهد الإخلاص ورسائل الولاء والفتاوي الدينية التي استصدرت من أجل حشد الولاء لفرنسا في حربها ضد ألمانيا والدولة العثمانية، حيث بلغت العشرات⁵⁶، ففي عام 1916 نشرت المجلة 145 رسالة ولاء من جزائريين لفرنسا، توزعت 128 رسالة منها - حسب مهن ومواقع أصحابها - كالتالي:⁵⁷

48 قياد ومشايخ

32 قضاة

15 وجهاء طرق صوفية

13 موظفو شعائر (موظفين دينيين)

11 موظفين (إداريين)

8 ملاك أراضي

1 تاجر

⁵⁵ - محمد قن، مرجع سابق، ص 214

⁵⁶ - Revue du Monde Musulman, 1915, pp 8,10

⁵⁷ - التليلي العجيلي، صدى حركة الجامعة الإسلامية، ص ص 349، 350

- خاتمة:

إجمالاً يمكن القول بأن الحرب العالمية الأولى مثّلت فرصةً للجزائريين للتعبير عن عواطفهم المكنونة تجاه الدولة العثمانية، في اتجاهات مختلفة، بعدما ضاق مجال إبراز هذه العواطف منذ حرب القرم. وإذا كانت الجامعة الإسلامية قد استطاعت بعث هذا الشعور من جديد إلا أن الملاحظ عليها هو أنها ارتبطت بالنخب المثقفة والدينية والتصقت بالجمعيات والصحافة أكثر فظلت بعيدة عن الجماهير.

إن ميزة الحرب العالمية الأولى بالنسبة لقضية التضامن الأهلي هو بروز التفاعل السياسي العفوي لدى الجماهير ومراهناتها على القوة الألمانية لتغيير المعادلة في الجزائر، ويمكن أن نجعل الأساطير والأغاني الشعبية أبرز مظاهر التضامن الأهلي وأكثرها سيطرة في أذهان هؤلاء، بينما قلّت المواقف العملية كالثمرات والحركات المسلحة التي استطاعت السلطات الفرنسية التحكم فيها وعزلها عن الجو العام رغم ما يسجله المؤرخون من تأثير لها بالدعاية الألمانية العثمانية.

وإذا كانت حالات فرار المجندين المسلمين من الجيش الفرنسي محدودة ومعزولة للغاية عن قضية التضامن مع الدولة العثمانية وأنها لم تعدو أن تكون نجاة بالنفس. فإننا نذكر بالحالات الخطيرة التي استطاعت استفزاز وإثارة رد الفعل الفرنسي، ونعني بها حالة الملازم الحاج عبد الله بوكابويا الذي أصدر مؤلفين تمّ توزيعهما - بدعم من السلطات العثمانية والألمانية - على نطاق واسع للتأثير في زملائه من المجندين المسلمين في الجيش الفرنسي.

ومن النقاط التي تستلزم التوقف عندها وجوب التمييز بين ولاء الجزائريين الروحي التام للدولة العثمانية وولائهم البراغماتي لألمانيا باعتبارها حليفة للدولة العثمانية، وحاجتهم الأكيدة لتثبيت هذا الولاء البراغماتي بأوهام وأساطير وإشاعات وأغاني شعبية... مع إدراك شبه تام لدى هؤلاء للأهداف الألمانية. (حالة صالح الشريف وصالح خوالدية لدى النخبة).

إن بساطة هذا الحوار الشعري الدائر بين عجوزين في إحدى مناطق الوسط الجزائري حول استبشار أحدهما بهجوم هتلر على فرنسا (خلال الحرب العالمية

الثانية طبعا) وما يجلبه من سعد للجزائريين، يختصر لنا فهم الجزائريين لمراوغات ألمانيا واستغلالها للجزائريين في مشروعها الحربي ضد فرنسا، أما الموقف من الدولة العثمانية فهو موقف روعي كما ذكرنا. فقد ردت العجوز الثانية على الأولى بتذكيرها أنها ساذجة لأن وضعها لم يتغير بعد ظهور هتلر (ألمانيا) فقد استمر اضطهاد الجزائريين وبؤسهم حتى أنهم اضطروا لالتحاف أكياس الحبوب في عهد حكومة فيشي، وهذا هو نص الحوار كما رواه لنا شاعر الملحون الأستاذ محفوظ بلخيري:⁵⁸

العجوز الأولى: اتلير جانا من ظهرة
وفرانسة عمرت بيه
أي: ظهر هتلر قادما من الجهة الشمالية
وفرنسا خربت بظهوره
العجوز الثانية: انتي عزيز مغرورة
واتلير ويكت شفتيه
في عامو شفتي الحقرة
حتى الخيش البستيه
أي: أنت عجوز مغرر بها
فمتى رأيت هتلر؟
ففي عهده ازداد الاضطهاد
والبؤس حتى اضطرت لالتحاف أكياس
الحبوب.

يبدو أن الأمر ينطبق على حال الجزائريين خلال الحرب العالمية الأولى، وأن رهانهم على الألمان كان الحل الأخير لدى الغريق.

المراجع باللغة العربية:

- آجرون شارل روبير، (2007)، الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871 - 1919، ج2، تر: م. حاج مسعود -ع. بلعربي، دار الرائد للكتاب، الجزائر، دط
- بلخيري محفوظ (23 فيفري 2014)، مقابلة شخصية مع الباحث، الجلفة، الجزائر
- بن جلoul الهزشي، الجزائريون والتضامن العربي الإسلامي 1911 - 1954، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر2، 2014، غير منشورة
- بن علجية لحسن، (2015)، الشيخ عبد القادر بن إبراهيم المسعدي حياته وآثاره، دار الهدى، عين امليلة، ط1
- عمر بن قينة، الديسي، حياته وآثاره وأدبه، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1977

⁵⁸ - محفوظ بلخيري، مقابلة شخصية مع الباحث، الجلفة، الجزائر، 23 فيفري 2014

- التليلي العجيلي، (2009)، الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (1881 - 1939)، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، تونس، ط2
- التليلي العجيلي، (2005)، صدى حركة الجامعة الإسلامية في المغرب العربي (1876 - 1918)، دار الجنوب للنشر، تونس، ط1
- جغلول عبد القادر، (1984)، الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، تر: سليم قسطون، دار الحداثة، لبنان، ط1
- الحسيني علي الرضا، (2000)، صفحات من سيرة الإمام محمد الخضر حسين وأخويه زين العابدين ومحمد المكي، الدار الحسينية للكتاب، دمشق
- خريفي صالح، (1984)، عمر بن قنبر الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط
- دبور محمد علي، (دت)، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج 2، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر
- دراوي امحمد، (2009)، الجامعة الإسلامية والجزائر 1876 - 1924، مذكرة ماجستير في التاريخ المعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر
- طرشون نادية وآخرون، (2007)، الهجرة الجزائرية نحو المشرق العربي أثناء الاحتلال، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، وزارة المجاهدين، الجزائر، طبعة خاصة
- عرعور علي، (10 أوت 2012)، مقابلة شخصية مع الباحث، الجلفة، الجزائر
- قوبع عبد القادر، (2013)، الحركة الإصلاحية في منطقتي الزيبان وميزاب بين سنتي 1920 و 1954، دار طليطلة، الجزائر، ط1
- قن محمد، (2007)، الخلافة العثمانية وصدى سقوطها في الجزائر ومصر 1876 - 1924، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر
- سعد الله أبو القاسم، (2003)، بحوث في التاريخ العربي والإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1
- محفوظي عامر، (2002)، تحفة السائل بباقة من تاريخ سيدي نائل، مطبعة النعمان، برج الكيفان، الجزائر
- ناصر محمد، (1984)، عمر راسم المصلح الثائر، مطبعة لافوميك، الجزائر
- نويهض عادل، (1983)، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض للثقافة، بيروت، ط3

المراجع باللغة الأجنبية:

- Desparmet Josef, (1932), la chanson d'Alger pendant la grande guerre , in Revue Africaine , N 73 , , OPU
- Revue du Monde Musulmane, (1915).